الفصل الثاني

الإنسان في الإسلام

الدارس بغير تعمق في الإسلام يجد أن موقف الإنسان في الدين الإسلامي مثل غيره في باقي الأديان. فقد جاء الإسلام من أجل الإنسان والإنسانية، شأنه في ذلك شأن باقي الرسالات الربانية، ولكن الإسلام كان تتمة الرسالات، فلم يكن فيه الثغرات ولم يسمح لرجال الدين أن يخرجوا به عما جاء به ومن أجله.

فقد خلق الله الإنسان بأسمى الأهداف، ولأجل المهام، خلقه الله ليكون خليفته في أرضه، فقد ورد في قول الله تبارك وتعالى في سورة البقرة آية ٣ (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً). والخلافة في الأرض تحتاج للمؤهلات التي ميز الله بها الإنسان، ولو دققنا النظر في تلك المؤهلات لوجدنا أن قوامها مزيج من المادة والروح؛ فالمادة تتجلى في قول الله عز وجل في سورة ص آية ٧١: (إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ). وتلك المادة جاءت من طبيعة الأرض التي خُلق الإنسان من أجل عمارتها، أما الروح فهي لطيفة من سر الله سبحانه وتعالى تكمن تحت قوله عز وجل في سورة ص آية ٧٢ (فَإِذَا سَوَّيْتُهُ ونَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ).

ومن هنا كان سر تكوين الإنسان، فقد سجد الملائكة له كلهم أجمعون إلا إبليس الذي أبى واستكبر فكان من المطرودين، وخلق الإنسان بقدرة العلي الكبير من هذا المزيج، فتفاعل سر الروح مع طبيعة الأرض فكان الإنسان تحت تأثير عاملين. أولهما: الأثر الروحي في حياته، حيث كان دائمًا نزاعًا إلى السمو فيتطلع إلى ربه. وثانيهما: أن الإنسان كان ميالاً إلى الانجذاب والرجوع إلى طبيعته الأرضية التي تحبب إليه النزول إلى الأرض، والانغماس في متعتها الحيوانية.

ولذلك نشأت عند الإنسان غريزتان: أولاهما حب البقاء والخلود؛ وذلك مقتبس من مدخل الشيطان للإنسان، وذلك واقع تحت قول ربنا تبارك وتعالى في سورة طه آية ١٢٠: (قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الخُلْدِ ومُلْكٍ لاَّ يَبْلَى). ومن حب البقاء والرغبة في الخلود عرف الإنسان الغرائز الجنسية؛ وذلك بظهور أعضاء التناسل التي ظهرت له بعد أكله من الشجرة المحرمة عليه، وذلك ما بينه الله في سورة الأعراف آية ٢٢: (بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن ورَقِ الجَنَّةِ).

والغريزة الثانية التي نشأت مع حب البقاء، كانت وليدة الأثر الروحي والجانب الإلهي، وهذا واضح من التوبة عقب الخطيئة، فالجانب الإلهي يشرق، ويحتوي الإنسان ميل جارف إلى النزوع إلى الله حين يجد نفسه في حاجة إلى ربه فيقبل عليه في ذلة وخضوع مستغفرًا تائبًا منيبًا مأسفًا نادمًا على ما فرط في جنب الله وما وقع منه من الذنوب والآثام. وإن لأوضح الصور هي لجوء آدم إلى ربه بعد وقوعه في المعصية؛ وذلك ما

ورد في قول الله عز وجل في سورة الأعراف آية ٢٣ على لسان آدم وحواء: (قَالا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وإن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الخَاسِرِينَ).

وكان لله حكمة سامية في خلق خليفته من هذا المزيج المركب من الروح والمادة. فعلى قدر إدراكنا يمكننا الاستنباط والخروج بالهدف من وراء تلك الحكمة؛ وذلك يمكن تلخيصه في سببين: أولهما أن الإنسان إذا ما أخطأ وانجذب إلى أرضه فهو بذلك يميل إلى أصله الذي خلق منه، وهو الصلصال -الحمأ المسنون- والصلصال عبارة عن الطينة النتنة من الأرض، ومن أصل الإنسان يتعلم ذلك المخلوق، فلا يتكبر ولا يطغى، ولا يمشى في الأرض مرحًا، وتكون له الحصانة التي تجعله لا يضل فيما يسعى، لأنه عرف أنه موصوف بالنقصان، وأن خالقه موصوف بالكمال، فلا يعترف بما جاء به سفر التكوين، (وهو من أسفار بني إسرائيل) أن الله خلق الإنسان على صورته؛ فلا يصدق ذلك الضرب من ضروب اللهو، ثم يؤمن أن الكمال لله وحده، وأن الله ليس كمثله شئ في الأرض ولا في السماء ولا شبيه ولا مثيل.

وثاني السببين: أن الملائكة قادرون على فعل الخير فقط، لا عمل لهم إلا التسبيح والتهليل والتكبير، وأن الإنسان بمزاجه إذًا قادر على فعل الشر والخير، وبذلك يكون خلقه ممتازًا فيتمكن من القيام بالرسالة الملقاة على عاتقه، وأن رسالة تعمير الأرض لأمر جليل يحتاج إلى ذلك الإنسان

الذي صنعته القدرة الإلهية من هذا الخليط الذي جعل الإنسان معدًا إعدادًا يتكافأ مع حكمة الله عز وجل الذي خلقه لما يسر له.

وخلق الإنسان بغرائزه الحيوانية وأمداده الروحية، لم يكن كفيلاً بمعاونته على تأدية رسالته في الأرض؛ ولذلك اقتضت حكمة الله عز وجل أن تجعل منه قوة إنشائية مباركة، تقوم بما كلفت به على الوجه الأكمل على هدى من الله، فأعطاه الله الموهبة التي جعلته مستعدًا لقبول العلم، والمعرفة، والتفكير، والإنشاء، والتعمير، وتبطل احتجاج الملائكة على خلق ذلك الإنسان عندما جاء على لسانهم في سورة البقرة آية ٣٠: (قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ).

وكان تشريفًا لذلك الإنسان ونصرًا له من الله على هؤلاء الملائكة المقربين ما جاء في سورة البقرة آية ٢٣: (وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى المَلائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إن كُنتُمْ صَادِقِينَ قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إنَّكَ أَنتَ العَلِيمُ الحَكِيمُ).

ولم يكن عصيان آدم وخروجه من الجنة لهوًا أو عبثًا، فقد خلق آدم لعمارة الأرض؛ ولذا لم تكن حوادث إغراء الشيطان له واستدراجه إلا امتحانًا لكي يرى الإنسان ما هو عليه من الضعف البشري والعجز أمام شهواته ونزواته. ولذلك يتولد عنده الشعور بأنه دائمًا محتاج إلى من يهديه، ويرشده، ويرحمه، ويغفرله. وهنا يكون سر التجلي للطيفة الربانية في

الإنسان، ويحسم القرآن الكريم هذا النزاع بقول الله عز وجل في سورة طه آية ١٢١، ١٢٢: (وعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغوَى ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وهَدَى). ثم يوضح القرآن شعور آدم بالخطيئة واستغفاره ربه وغفران ربه له: (فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ) سورة البقرة آية ٣٧.

ومع قبول الله سبحانه وتعالى توبة آدم وغفرانه له، لم يمنع ذلك من تنفيذ إرادة الله سبحانه وتعالى وإخراجه وزوجه من الجنة إلى الأرض التي خلق لها ومنها، ثم يعود إليه ثم يخرج منها تارة أخرى: (مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وفِيهَا نُعِيدُكُمْ ومِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى)، وإلى حيث هبط الشيطان الذي كان سببًا في إخراجهما، والذي استحكم العداء بينه وبين الإنسان من يوم أن رفض السجود لذلك الإنسان (قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ) سورة طه آية ١٢٣.

إذن فالإنسان والشيطان قد خرجا إلى الأرض وكل منهما يضمر للآخر حقدًا، فالشيطان لا ينسى أنه أخرج من الجنة وهبط إلى الأرض بسبب الإنسان؛ ولذلك فهو يتربص له ريب المنون (قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ ومِنْ خَلْفِهِمْ وعَنْ أَيْمَانِهِمْ وعَن شَمَائِلِهِمْ ولا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ) سورة الأعراف آية ١٦، ١٧.

والإنسان يعتبر الشيطان عدوًا له، فقد أخرجه من الجنة بعد أن أغوى فيه طبيعته السلبية الميتة (وبدأ خلق الإنسان من طين، ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين)، فأراد أن يسترد اعتباره متخذًا من طبيعته الإيجابية الحية، طبيعة الروح: (ثُمَّ سَوَّاهُ ونَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ والأَبْصَارَ والأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ) سورة السجدة آية ٩. (سلاحًا يبطش به بذلك العدو اللدود الذي حرمه منزلته).

والإنسان في صراعه مع الشيطان يعمل ما في وسعه، ويبذل أقصى طاقته للانتصار عليه، وهذا الصراع من جانب الإنسان تحقيقًا لإرادة الله عز وجل: (ومَا خَلَقْتُ الجِنَّ والإنسَ إلاَّ لِيَعْبُدُونِ). فيحافظ على المرتبة العظمى التي كانت تتطلع إليها الملائكة، فيستعيذ بربه من ذلك الوسواس الخناس الذي يوسوس في صدور الناس من الجنة والناس.

وهكذا يظل الإنسان بين الكر والفر، تارة ينتصر على الشيطان وتارة يهزم أمامه، فإذا ما تغلبت طبيعته النورانية الروحانية واهتدى كان من المنصورين، وبذلك يدحض حجج الشيطان وتتمشى فيه روح الجندي لله، ويستل سيوف النصر لله فوق هامات أعداء الله (إن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ ويُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ).

وإن تغلبت على الإنسان حيوانيته وجذبته الأرض إليها وزين له حب الشهوات، سار مع الشيطان في غوايته، في تلك الحالة كان من المنهزمين، وبذلك يكون خصيمًا لرب العالمين، ويخضع الخضوع الكلي للشيطان،

ويحق عليه أن يوصف بصفات ذكرها الله عز وجل في القرآن الكريم، وبذلك تكون قد تخلت عنه اللطيفة الربانية وتطلق عليه هذه الصفات:

(ويَدْعُ الإنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وكَانَ الإنسَانُ عَجُولاً) سورة الإسراء آية ١١. (وكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًا شَيَاطِينَ الإنسِ والْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ القَوْلِ غُرُورًا) سورة الأنعام آية ١١٢.

(إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ) سورة هود ٩.

(إنَّ الإنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا إذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا وإذَا مَسَّهُ الخَيْرُ مَنُوعًا) سورة المعراج الآيات ١٩، ٢١.

(إنَّ الإنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ) سورة إبراهيم آية ٣٤.

(إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً) سورة الأحزاب آية ٧٢.

(وكَانَ الإنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً) سورة الكهف آية ٥٤.

(إنَّ الإنسَانَ لَيَطْغَى أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى) سورة العلق آية ٦، ٧.

(إنَّ الإنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ وإنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ وإنَّهُ لِحُبِّ الخَيْرِ لَشَدِيدٌ..) سورة العاديات الآيات ٦، ٧، ٨.

(إنَّ الإنسَانَ لَفِي خُسْرٍ) سورة العصر آية ٢.

(بَلْ يُرِيدُ الإنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ) سورة القيامة آية ٥.

(وكَانَ الإنسَانُ قَتُورًا) سورة الإسراء آية ١٠٠.

(وخُلِقَ الإنسَانُ ضَعِيفًا) سورة النساء آية ٣٨.

وسواء كان الإنسان متبعاً لطبيعته الإلهية أو طبيعته الحيوانية، فهو في الإسلام حر مكلف يستطيع أن يصعد إلى قمة المجد الذي هيأه له ربه. وبهذا التكليف يكون الإنسان قد كرمه ربه حيث جعله مخيرًا فيما يذهب إليه، فقد حمل ما عجزت عن حمله كل من السماوات، والأرض، والجبال (إنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ والأَرْضِ والجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وأَشْفَقْنَ مِنْهَا وحَمَلَهَا الإنسَانُ). سورة الأحزاب آية ٧٢.

وذلك بعد أن بين الله الخير والشر للإنسان وكمله بالإمكانيات وأحسن خلقه.

(أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ ولِسَانًا وشَفَتَيْنِ وهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ فَلا اقْتَحَمَ العَقَبَةَ) سورة البلد الآيات ٨-١١.

وبذلك كان الإنسان حرًا فيما يختاره لنفسه جنة أو نارًا، تكريمًا أو إهانة (بَلِ الإنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ) سورة القيامة آية ١٤.

فهو محاسب عما كلف به.

(يُنَبَّأُ الإنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وأَخَّرَ) سورة القيامة آية ١٣.

(وكُلَّ إنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ) سورة الإسراء آية ١٣.

كما بين القرآن أنه ليس للإنسان إلا ما سعى، وأنه ليس ضحية لخطيئة موروثة أو جريرة جناها أبوه أو جده.

(ولا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى) سورة فاطر آية ١٧.

ذلك هو الإنسان في الإسلام، ولم يتركه الإسلام وشأنه، بل أعده إعدادًا كاملاً لتحمل المسئولية، وتأدية الرسالة، وحمل الأمانة، فقد كفل الله له من العلم وتهيئة أسباب الحياة، وتنظيم حياته فردًا وجماعة، وحيدًا وفي أسرة، في عشيرته أو دولته، في وطنه أو مع أوطان أخرى، ميسرًا لما خلق له، وذلك ما سنفصله فيما يلي من هذا الكتاب.